رابطة العالم الإسلامي
الأمانة العامة
الإدارة العامة للمؤتمرات والمنظمات

الغزو الثقافي والهزيمة النفسية
(الدولة العثمانية نموذجًا)

إعداد

الدكتور أحمد عبد الله نجم

أستاذ اللغات الشرقية بكلية الآداب بجامعة عين شمس- مصر

مقدم إلى مؤتمر مكة المكرمة الخامس عشر

الثقافة الإسلامية.. الأصالة والمعاصرة

الذي تنظمه

رابطة العالم الإسلامي

مكة المكرمة

٤ - ٦ / ذو الحجة / ١٤٣٥ هـ
٢٨ - ٣٠ / سبتمبر / ٢٠١٤ م

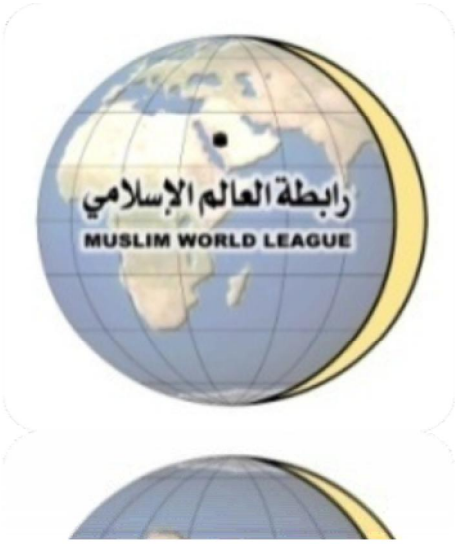

رابطة العالم الإسلامي

مكة المكرمة - المملكة العربية السعودية

صندوق البريد (٥٣٧) أو (٥٣٨) مكة المكرمة (٢١٩٥٥)

هاتف: ٠٠٩٦٦١٢٥٦٠٠٩١٩- الفاكس: ٥٦٠١٣١٩-٥٦٠١٢٦٧

برقياً: رابطة - مكة، تلكس: ٥٤٠٠٠٩ و٥٤٠٣٩٠

www.themwl.org

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

مقدمة

في هذه الأيام التي كثر الحديث فيها عن التعايش السلمي بين الثقافات المختلفة وقبول الآخر؛ ثمة حقيقة تاريخية مفادها أن الدولة العثمانية المسلمة استطاعت أن تقدم نموذجًا للدعوة الإنسانية النبيلة؛ وأن تحقق ذلك النموذج في وقتٍ كان عدم قبول الآخر هو القاعدة، وقَبولُه والتعايش معه هو الاستثناء.

فالدولة العثمانية التي امتدت رُقعتُها إلى ثلاث قارات، كانت متعددة الأعراق والمذاهب،حيث كان يعيش على أرضها: العرب، والتُّرك، والكُرد، والبوشناق، والألبان؛ والمسلمون: السنة والشيعة؛ واليهود: القَراؤون والربانيون؛ والمسيحيون: الأرثوذكس، والأرمن، والكاثوليك، والبروتستانت.

واستطاعت الدولة العثمانية أن تجمعهم في نسيجٍ واحد رغم كل التباين بينهم، ولم تستعمل القوةَ والقهر لتحقيق هذا كما فعلت روسيا مع الجمهوريات التي ضمتها إليها بالقوة لتكوين الاتحاد السوفيتي.

أما الدولة العثمانية فقد اتَّبعت الطرقَ السلمية لتحقيق هذا الأمر دون إكراهٍ أو عَنَت، وارتضت لمن يعيشون على أرضها من غير المسلمين أن يعتنقوا ما شاؤوا من مذاهبَ وأديان، كما سمحت لهم بإدارة شؤونهم الداخلية بأنفُسهم شريطة الالتزام بالقوانين العامة التي سنَّتها الدولة.

أي أن الدولة العثمانية كانت تنتظر من أفراد الجماعات غير المسلمة التي تعيش على أرضها؛ أن تتصرف وِفق أعرافِ وعاداتِ المِلة أو المذهب الذي

ينتمون إليه، وعندما كان ينشب خلاف بين أفراد تلك الجماعة؛ كانت الدولة تترك لرئيس تلك الجماعة حلَّ هذا الخلاف وفق قوانين وأعراف جماعته نفسها، وعند عجزه عن حل هذا الخلاف تتدخل سلطات الدولة لحله[١].

ولم تكن الدولة مضطرةً للقيام بهذا الأمر تحت ضغوط دولية أو خوفًا من محاسبةٍ ما كما يحدث اليوم؛ فالدولة العثمانية كانت إحدى الدول العظمى في ذلك الوقت إن لم تكن الأُولى بل الوحيدة، وقد ارتكزت الدولة العثمانية في رؤيتها هذه على مقتضيات التصور الإسلامي للآخَر المختلف مع المسلم في الدين، فالإسلام ينظر إلى ذلك الآخَر باعتباره أهلَ ذمةٍ تجب حمايتُه وعدمُ المساس بحقوقه الدينية والإنسانية؛ مصداقًا لقول الرسول الكريم ﷺ: «**ألا مَن ظَلم معاهَداً، أو انتقصه حقَّه، أو كلَّفه فوق طاقته، أو أخذ منه شيئًا بغير طِيبِ نفْسٍ منه؛ فأنا حجيجُه يوم القيامة**»[٢].

ولكن ورغم كل ما قدمته الدولة العثمانية لغير المسلمين بأرضها؛ إلا أن ذلك لم يشفع لها أمام الغرب الذي سعى لغزوها ثقافيًا حين عجز عن غزوها عسكريًا؛ حتى إذا ما تمكن من أدواته في الداخل العثماني؛ انتقل إلى مرحلة الغزو المادي العسكري المتمثل في الاحتلال والسيطرة على الأرض.

وإن ما دفعنا لتناول الدولة العثمانية كنموذجٍ للغزو الثقافي والهزيمة النفسية سببان:

السبب الأول: الخصائص التي انفردت بها الدولة العثمانية، فهي آخر خلافة إسلامية عرفها الإسلام، وآخر دولة عظمى نجح المسلمون في تشكليها في

(١) أحمد حكمت أر أوغلو: اليهود في الدولة العثمانية حتى نهاية القرن التاسع عشر، ص ٢٧٩.
(٢) رواه أبو داود والبيهقي وصححه الألباني في صحيح الجامع.

التاريخ الحديث، فإذا كان هذا الغزو قد حدث مع دولة مسلمة كان هذا شأنُها؛ فمن بابٍ أولى أن يكون للدول في عالمنا العربي والإسلامي اليوم العبرة والمَثل، ولا يكون حديثُنا عنها من باب الترف الفكرى واجترار الماضي.

السبب الثاني: أن نتائج الغزو الثقافي لدولةٍ ما؛ لا يظهر أثرها بشكل آنٍ؛ بل قد يظهر بعد مُضِيِّ فترة طويلة أو حتى بعد أن تكون هذه الدولة قد انهارت، وهذا ما ينطبق على الدولة العثمانية التي شهدت بعضَ نتائج الحملة الشرسة من الغزو الثقافي الذي شنه الغربُ عليها، وشهدت وريثتُها المعاصرةُ تركيا؛ البعضَ الآخر، ومن هذا المنطلق سنحاول في الصفحات القادمة أن نُلقي الضوءَ على تلك القضية المتمثلة في الغزو الثقافي الذي تعرضت له الدولة العثمانية: كيف تكون البدايات؟ وإلى ماذا تصير النتائج؟

الصراع بين الدولة العثمانية والغرب المسيحي
لَمحة تاريخية موجزة عن الفتوحات العثمانية في أوروبا

بعد وفاة الأمير أرطغرل عام ٦٨٠ هـ/ ١٢٨١م؛ خلَّفه ابنُه عثمان (٦٩٩-٧٢٦هـ/ ١٢٩٩-١٣٢٦م)، فأخذ يوسع أراضيه بالتدريج مستغلاً الفوضى والإهمال المسيطرَين على الأراضي البيزنطية، وسقطت أماكن كثيرة في يد العثمانيين، فكان عليها أن تدافع عن نفسها بقواتها المحلية[١]، وظلت هذه السياسة متبعة في الدولة العثمانية طوال فترة النشأة التي امتدت حتى عام ٧٦١هـ/ ١٣٥٩م؛ حيث اختارت الإمارةُ العثمانيةُ الناشئةُ الأراضيَ البيزنطيةَ كساحةٍ لنشاطها وجهودِها لتأمين موقعها الجغرافي، واستطاعت خلال فترةٍ وجيزةٍ أن تحقق نُموًا ونجاحًا كبيرَيْن[٢].

والواقع أن الفتوحات العثمانية لم يتحقق أغلبُها عن طريق القوة فقط؛ بل تم ذلك باتباع سياسة الوفاق والاستمالة، وهو الأمر الذي ساعد على بقائها، ولا شك أن العناية الكبيرة التي بذلها العثمانيون عند تطبيق الشريعة الإسلامية، وتمسُّكَهم بمبدأ العدالة الذي نصَّت عليه الشريعة، ورعايتَهم لها، قد ضمن للعثمانيين تبعيةَ السكان المحليين الواقعين تحت الضغوط السياسة والدينية الشديدة لحكامهم المسيحيين[٣].

---

(١) محمد فؤاد كوبرلي: قيام الدولة العثمانية، ترجمة د. أحمد السعيد سليمان، ص ١٨٠.

(2) Fahri Unan: Kuruluşundan Günümüze Fâtih Külliyesi, T. T. K. Ankara, 2003. s. 7.

(٣) فريدون آمجن: التاريخ السياسي للدولة العثمانية، في الدولة العثمانية تاريخ وحضارة، إشراف وتقديم أكمل الدين إحسان أوغلي، ترجمة صالح سعداوي، ج ١، ص ١٣، ١٤.

فقد حرص عثمان بك -مؤسس الدولة- على تأكيد التمسك بالشريعة في وصيته التي تركها لابنه الأمير أورخان فقال: «أولاً: يجب أن تقدم أمرَ الدين على جميع المصالح؛ لأن الدين هو قوام الدولة، وسِرْ على هَدْي النبي ﷺ ولا تخالف الشريعةَ، ثانيًا: لا تستخدم الأشخاص الذي لا يهتمون بأمر الدين أو الذين يقترفون الكبائرَ ويميلون إلى مذهب الإلحاد والاعتزال، لأن الذين لا يخافون من الخالق لا يخافون من المخلوق، ثالثًا: احكُمْ بالعدل في أمورك حتى يحسد رعايا سائرِ الملوك رَعاياك تحت ظل عدلِك، لأن السلطنة والمملكة تكون بالرعية، ولو لم يكن هناك عدلٌ لاضْمَحَلَّت وانتهت مملكتُك، رابعًا: تجنَّب الظلمَ والبدعةَ، وأَبْعِدْ عن دولتك مَن يحبب إليك الظلمَ والبدعةَ، لأن مَن يُرغّبَكَ في هذا فإنما يُرَغِّب في زوال دولتك، وحافِظْ على النظام بالشريعة، ولا تغتر بالمال والجُند، ولا تُبعد عنك أهلَ الشرع الشريف»[(١)].

وقد مضت السياسة العثمانية في طريقها المرسوم دون أن تستطيع أوروبا مواجهتها أو إيقافها، فقد نجح السلطان مراد الأول (٧٦٠-٧٩١هـ) (١٣٦٢-١٣٨٩م) في فتح مدينة أَدِرْنة في البَلقان عام ٧٦٣هـ/ ١٣٦١م، واتخذها عاصمةً للدولة، وقضى على الحِلف الصليبي الذي تَكوَّن لمحاربته من الصِّرب والبُلغار والمجر، وذلك في معركة قوصوه الأولى (٧٩١هـ/ ١٣٨٨م)، ففقدت بلادُ الصرب استقلالهَا؛ إلا أن السلطان سقط شهيداً على يد جندي صربي وهو يتفقد الجرحى بعد المعركة[(٢)]، وقد واصلَ السلطانُ بايزيد (٧٩١-٨٠٥هـ/ ١٣٨٨-١٤٠٢م) سياسةَ الجهاد ضد دول البَلقان والبيزنطيين، فقام بمحاصرة

(١) فرائضي زادة محمد سعيد: تاريخ گلشن معارف، ج١، ص ٤١٧.
(٢) انظر: عبد الرحمن شرف: تاريخ دولت عثمانية، ص ٧٦-٨٤.

إستانبول، واستطاع أن يحطم النفوذَ المجريَّ، وتم القضاءُ على القوة الصليبية الضخمة التي احتشدت في «بودا»، والتي أمكن إبادتُها خلال مدة قصيرة عند مشارف نيكوبولي (٧٩٩هـ/ ١٣٩٦م) [١].

وفي منتصف القرن التاسع الهجري- الخامس عشر الميلادي- نجحت الدولة العثمانية في تحقيق حُلمٍ طالما راوَدَ الكثيرَ من المسلمين، وهو فتحُ القسطنطينية عام ٨٥٧هـ/ ١٤٥٣م على يد السلطان محمد الفاتح (٨٥٥-٨٨٦هـ/ ١٤٥١-١٤٨١م)، الذي جعل من هذه المدينة عاصمة للدولة العثمانية، وواصل فتوحاته في أوروبا؛ ففتح بلادَ الصرب والموره والبوسنة والهرسك وجزيرةَ رودس [٢].

أما في بداية القرن العاشر الهجري- السادس عشر الميلادي- فحدث تحول كبير في سير الفتوحات العثمانية، إذ أن الفتوحات العثمانية قد توقفت في أوروبا، واتجهت نحو المشرق نتيجة ظهور الخطر الشيعي المتمثل في الدولة الصفوية، فقد حاول الشاه إسماعيل الصفوي نشْرَ التشيع بين سكان الأناضول، وأرسل رجالَه للدعاية له بين السكان، وكان يجهزهم للقيام بعصيانٍ وتمرُّدٍ ضخم ضد الدولة العثمانية، كما نجح في الاستيلاء على ديار بكر وخربوط، وبات يهدد الدولةَ العثمانية بشدة [٣]، إلا أن السلطان سليمَ الأولَ (٩١٨-٩٢٦هـ/ ١٥١٢-١٥٢٠م) قام بمطاردة الصفويين وخرج لجهادهم، ونجح في

(١) فريدون آمجن: مرجع سابق، ص ١٩.

(2) Ömer Faruk Yımaz: Osmanlı Tarihi, Osmanlı yayınevi,ist., 2 baskı,1999,Icilt, s. 364,375,377,381.

(3) İsmail Hakkı Uzunçarşılı: Osmanlı Tarihi,T. T. K, Ankara, 4. Baskı 1982, 2 Cilt, s. 229.

هزيمتهم في چالديران سنة٩٢٠هـ/ ١٥١٤م، وتقدم العثمانيون حتى تبريز [١]، وبعد انتصارهم على الصفويين، حرَص السلطان سليم الأول على استكمال فتوحاته في المشرق، فقضى على إمارة ذي القدير، وسعَى إلى إنهاء حكم دولة المماليك التي تعرضت لهزيمة ثقيلة على يد البرتغاليين في معركة ديو البحرية عام ٩١٥هـ/ ١٥٠٩م، مما عرَّض العَالَم الإسلامي للتطويق من الخلف، وفتَح الطريق أمام التغلغل المسيحي في الشرق الأوسط والهند، واستطاع سليم الأول عام ٩٢٣هـ/ ١٥١٧م في موقعة الريدانية؛ أن يُنهي حُكم دولة المماليك، وأن يضم إلى الدولة العثمانية الأماكنَ المقدسة في مكة والحجاز [٢].

وفي عهد السلطان سليمان القانوني (٩٢٦-٩٧٤هـ) (١٥٢٠-١٥٦٦م)؛ بدأ العثمانيون في الاضطلاع بدورهم كدولة عالمية عظمى تؤثر في السياسية العالمية إلى جانب إمبراطورية آل هابسبورج، وقيصرية موسكو، وحملت الدولةُ العثمانية مسؤوليةَ قيادة العالم السني وحمايته، ومسؤوليةَ الجهاد المقدس ضد الصفويين في الشرق، والعالم المسيحي في الغرب، وقد بلغت الإمبراطوريةُ العثمانية أَوْجَ تقدمها في عهد السلطان سليمان القانوني؛ بسبب الانتصارات العسكرية والقوانين التي جرى العملُ بها [٣]، ونجح السلطان القانوني في فتح بلجراد عام(٩٢٧هـ/ ١٥٢٠م)، ورُودس (٩٢٨هـ/ ١٥٢١م)، وبودين (٩٣٢هـ/ ١٥٢٥م)، وحاصر فيينا (٩٣٦هـ/ ١٥٢٩م)، كما فتح العراق (٩٤٥هـ/ ١٥٣٨م)، ونقل عدة آلاف من مسلمي الأندلس إلى سواحل أفريقيا

(١) فريدون آمجن: مرجع سابق، ص ٣١.
(٢) أحمد عبد الرحيم مصطفى: في أصول التاريخ العثماني، ص ٨١ـ٨٢ـ٨٥.
(٣) فريدون آمجن: مرجع سابق، ص ٣٥.

عن طريق الأسطول العثماني[١].

وقد شكلت تلك الفتوحات موقفاً معادياً من الغرب للدولة العثمانية المسلمة، حتى إن كلمة Turk أصبحت مرادفاً لكلمة مسلم في تلك الفترة، ذلك لأن أوروبا لم تعرف مواجهةَ الإسلام على أراضيها إلا في عهد الدولة الأموية في آواخر القرن الأول الهجري- بدايات القرن الثامن الميلادي- وذلك عندما نجح المسلمون في فتح شِبه جزيرة إيبريا وتأسيس دولة الأندلس بها، وفي بداية القرن الرابع عشر؛ شعرت بالخطر الجديد القادم من الشرق هذه المرة يَدْهَمها بعنف، والمتمثل في الدولة العثمانية، حيث نجحت الدولة العثمانية عام ٨٥٧هـ/ ١٤٥٣م في القضاء على الدولة البيزنطية التي استعصت على الفتح طوال ثمانية قرون، وهي بذلك كانت تختلف عن دولة الخلافة الراشدة والدولة الأموية التي قضت على الإمبراطورية الفارسية، واستولت على مستعمرات الإمبراطورية البيزنطية في مصر والشام، وإن لم تنجح في القضاء على تلك الإمبراطورية التي كانت تمثل الجناحَ الشرقي للمسيحية في العالم في ذلك الوقت[٢].

ونتيجةً لهذه الفتوحات؛ تقوقعت أوروبا على نفسها في محاولةٍ لصدِّ الهجوم العثماني الكاسح عليها، وأخذت تعيد بناءَ نفسها من جديدٍ وتُحْدث نهضتها العلمية، وتتحين الفرصةَ لتعاود الانقضاضَ على الدولة العثمانية بطريقة ناعمة عن طريق الغزو الثقافي؛ أو خَشِنة عن طريق الاحتلال العسكري.

ونتيجةً للتفوق العسكري للدولة العثمانية على الغرب الأوروبي وتفوُّق ميزان القُوى لصالحها؛ فإن العثمانيين لم يشعروا بالحاجة للنقل عن أوروبا ولم

(١) عبد الرحمن شرف: مرجع سابق، ص٢٢٧، ٢٣٠، ٢٣٣، ٢٤٩.

(٢) انظر: أحمد عبد الله نجم: التعليم في الدولة العثمانية في ضوء المصادر التركية، ص١١-١٢.

يهتموا بتقدمها العلمي، وقابلوا المعارف والمفاهيم العلمية الغربية الجديدة بنوعٍ من التعالي والغرور، واكتفوا بشرح وتحشية الكتب الإسلامية القديمة [١]. فالفترة التي تمتد حتى عهد السلطان سليمان القانوني الذي وصلت فيه المؤسسات إلى ذروة كمالها، والتي عاشت فيها الدولة العثمانية أَوج تقدمها العلمي وازدهارها التقني، شهِدَت اختراعَ جوتنبرج للمطبعة ١٤٥٣م، واكتشافَ الأمريكتين ١٤٩٠م، وجهودَ كوبرنيكس ١٥٤٣م في الفَلَك لتحطيم نظريات بطليموس، ورغم هذا كله؛ فإن العالِمين الكبيرين ميريم چلبي وخواجه زاده؛ كانا بعيدين عن هذا الأمر، فالأول كان مشغولاً بكتابة مؤلفاتٍ تعتمد على كتاب «المجسطي» لبطليموس، والثاني يمضي وقته في كتابة حواشٍ على كتابَي: هداية الحكمة للأبهري، والمواقف لعضُد الدين الإيجي [٢].

وقد أدى هذا الانكفاء على الذات إلى أن تَولَّد لدى العثمانيين شعورٌ بعدم الحاجة إلى الآخر والاكتفاءِ بما لديهم، رغم أن هذا كان مناقضاً ومغايراً لمنهاج الحضارة الإسلامية في التقدم والتطور [٣]. وحتى حين كان يُضطر العثمانيون إلى الأخذ ببعض الاكتشافات في المجال التقني والطبي والمالي، أو استقدام ما يَلزم من العلوم الغربية؛ كان ذلك لأهداف عسكرية، لذا انصبَّ

(1) Ekmeleddin İhsanoğlu: Tanzimat öncesi ve Tanzimat dönemi , Osmanlı Bilim ve Egitim Anlayış, 150 yılında tanzimat, TTk yayınları, Ankara, 1992, S, 359.

(2) Cevat İzgi: Osmanlı Medreselerinde İlim; İz Yayıncılık: İst. 1997, 1 Cilt, S, 145.

(3) Osman kafadar: Türk Eğitim düşüncesinde batılaşma,Vadı yayınları, Ankara, 1997,S. 68.

اهتمام العثمانيين على متابعة التطورات في مجالات التقنية العسكرية والتعدين ورسم الخرائط، ونقلوا المعارف في مجالات الجغرافيا والفلَك بشكل انتقائي، وكان الإحساس بالتفوق المادي والمعنوي يحدد نظرتهم إلى أوروبا[١]، وهكذا بينما نجحت الدولة العثمانية في تحقيق انتصارات عديدة في عدة مجالات؛ فشلت الدولة في استغلال فرصة التفوق الذي حققته في صراعها العسكري مع الغرب المسيحي؛ حيث كانت لديها ميزة تتمثل في قدرتها على أن تقتبس من الغرب ما ينفعها -وهي في موضع القوة- وأن تميز بين الغث والثمين في هذا الاقتباس، مما كان سيشكل لها مانعًا أمام الغزو الثقافي الذي تعرضت لها بعد ذلك عندما اضطُرت- وهي في حال الضعف- إلى مواجهة غربٍ أكثر قوة وأكثر شراسة يريد أن يغزوها فِكرًا وبَرًّا وبحرًا.

(١) أكمل الدين إحسان اوغلي: الحياة التعليمية والعلمية وأدبيات العلوم عند العثمانيين، الدولة العثمانية تاريخ وحضارة، مرجع سابق، ج ٢، ص٤٩٦.

الغزو الثقافي الغربي للدولة العثمانية
المقاومة - الانبهار - الهزيمة النفسية

أولاً: المقاومة:

عقِب وفاةِ السلطان سليمان القانوني؛ انتقلت العلاقة بين الدولة العثمانية والغرب إلى طَور جديد من مراحل الصراع، وتمثَّل ذلك في نمطٍ جديد من العلاقات بينهما، فبعد أن كانت كِفةُ الميزان تميل لصالح الدولة العثمانية دائماً في المعارك التي دخلا فيها معًا؛ إذ بكفة الميزن تعتدل شيئًا فشيئًا حتى كادت تميل لصالح الغرب الأوروبي، ذلك أن العثمانيين فشلوا في تحقيق أي نصر كبير بعد فتح جزيرة قبرص عام ١٥٧١م؛ بل إن أسطولهم تعرَّض لهزيمة كبيرة في معركة ليبانتو ٧ من أكتوبر ١٥٧١م، وخسروا سفنا كثيرة من مجمل ١٣٠ سفينة شاركت في المعركة، واحتفلت أوروبا بهذا النصر باعتباره نهايةَ الخطر العثماني الذي كان يهدد أوروبا[١]، وظلت الأمور بين أخْذٍ وردٍّ بين العثمانيين والغرب المسيحي في أوروبا، وإن بدا أن الفترات الأولى من القرن السابع عشر الميلادي؛ كانت محمَّلةً بإشاراتٍ مزعجة تشير إلى الضعف الذي بدأ يعتري أوصالَ الدولة العثمانية (كعجز الدولة عن بسْط سيطرتها بشكلٍ كامل على البحر الأبيض والبحر الأحمر)، وأخَذ العالَم المسيحي يهاجم منافذَ الدولة الحيويةَ من كل جانب: البحر الأبيض، والبحر الأحمر، والبحر الأسود[٢]، وعندما استفاقت الدولةُ أمام ذلك الواقع المرير وبدأت تبحث عن سبيلٍ يمكِّنها من إصلاح ما

(١) خليل إينالجيق: تاريخ الدولة العثمانية من النشوء إلى الانحدار، ترجمة محمد الأرناؤوط، ص ٦٨.

(٢) خليل إينالجيق: مرجع سابق، ص ٧٤.

فسد من مؤسسات الدولة لتتمكن من مواجهة أوروبا وإعادة عهد الانتصارات من جديد؛ كان أمامها طريقان: الأول: الإصلاح؛ اعتمادًا على تراث الأمة، والثاني: التجديد على النمط الأوروبى والاقتداء بالغرب، وقد تبلور هذا المشروع الإصلاحي القائم على الاعتماد على تراث الأمة؛ في عددٍ من الكتابات الإصلاحية، وكانت الفكرة الأساس في تلك الكتابات أن آخر هذه الأمة لا يَصلح إلا بما صَلُح به أولهُا، ونادت تلك الكتاباتُ بضرورة العودة إلى النظام القديم الذي كان متَّبعًا أيام مجدها وعنفوانها، وإحياءِ قيم الشريعة الإسلامية المرعية في أصول الحكم والسياسة؛ المتمثلة في توسيدِ الأمور لأهلها، وتوليةِ أهل الكفاءة والصلاح والتقوى، وإنزالِ الناس منازلهم، ومحاربةِ الفساد والرِّشوة والمحسوبية، واستغلال المناصب والكسب غير المشروع[١].

وقد حفلت تلك الفترة من منتصف القرن السادس عشر الميلادي حتى نهاية القرن السابع عشر الميلادي بعدد كبير من تلك الكتابات الإصلاحية؛ التي رأى مؤلفوها أن التمسك بمؤسسات الدولة التقليدية ومحاولةَ إحياء ما قامت عليه الدولة العثمانية عند نشأتها؛ كفيلٌ بعودة ازدهار الدولة العثمانية وعودة الفتوحات الباهرة من جديد، وكان من أبرز تلك الكتابات: رسالة أصول الحُكم في نظام العالم، لحسن كافي الآقحصاري (ت١٦١٦م)، ورسالة قوچي بك (ت ١٦٤٨م)، ورسالة دستور العمل: إصلاح الخلل، لكاتب چلبي (ت١٠٦٧هـ / ١٦٥٧م)[٢]، وتبنَّى هذا الفكرَ الإصلاحيَّ عددٌ من السلاطين العثمانيين،

(١) عبد الرازق بركات: نصوص من الفكر الإسلامي، ص ١٩-٢٨.

(٢) للوقوف على معلومات أكثر تفصيلاً عن تلك الرسائل وغيرها من الكتابات الإصلاحية القائمة على الاعتماد على ثوابت الأمة؛ انظر: عبد الرازق بركات: مرجع سابق، ص ١٨-١٩.

أبرزهم: مراد الرابع (١٠٣٢-١٠٤٩هـ/ ١٦٢٣م – ١٦٤٠م)، الذي نجح فى تحقيق إصلاحٍ جزئي تمثَّل في القضاء على الفساد والرِّشوة إلى حدٍّ كبير، وإعادة الأمن والنظام، وإعدام آلافٍ من الخارجين على القانون، وتمكَّن مراد من إنعاش المؤسسات التقليدية كفرقة الانكشارية وغيرها، وتحقيق عدد من الانتصارات العسكرية، ونجح في استعادة بعض الأراضي التي فقدتها الدولة العثمانية[١].

وكان يمكن لمثل هذه المحاولات الإصلاحية أن تنجح لو قُيِّد لها سلاطينُ أقوياءُ يؤمنون بها ويقومون على تطبيقها ومعالجةِ أوجُه القصور بها، وكان يمكن لمثل تلك المحاولات أن تدرء عن الدولة خطرَ التغريب والغزو الثقافي الذي تعرضَت له بعد ذلك، ولكن مع شديد الأسف؛ ما لبِثت فتنةُ الغرب أن أصابت السلاطينَ العثمانيين والنخبةَ السياسيةَ وصفوةَ رجال العلم في الدولة، وبدأت الدولة تبحث عن حلولٍ لما أصابها من تأخُّرٍ عند أعداء الأمس المتحفزين للانقضاض عليها وتمزيقها إذا سنحت لهم الفرصة.

ثانيًا: الانبهار

مع بداية القرن الثامن عشر الميلادي؛ بدأ الفكر العثماني يتغير ويتبنى خطابًا جديدًا يتسم بالانفتاح على الغرب بدرجات متفاوتة، وبدأت تظهر بوادرُ الفتنة بالغرب[٢]، ذلك أن الغرب بدأ يحقق انتصاراتٍ على الدولة العثمانية، وبدأت الدولة العثمانية تخسر معاركها العسكريةَ أمام الدول الأوروبية، واضطُرت

---

(١) لمزيد من المعلومات حول فترة حكم هذا السلطان انظر: محمد فريد: تاريخ الدولة العلية العثمانية، ص ١٢٤-١٢٨.

(٢)عبد الرازق بركات: مرجع سابق، ص ٢٩.

للتنازل عن الأراضي والأماكن التي فتحتها قبل ذلك[١]، وعندما استشعرت الدولة العثمانية قوةَ الغرب ومدى ما وصل إليه من تقدُّم، ولأن المغلوبَ مُولعٌ دائمًا بتقليد الغالب - على حد قول ابن خلدون في مقدمته- لذا بدأت أنظار القائمين على أمر الدولة وولاةِ الأمر فيها؛ تتَّجه صَوبَ أوروبا ليتعرفوا على ما لديها من جديد، ولكن عندما يمَّمَت الدولةُ وجهَها ناحيةَ الغرب؛ لم تكن هي الدولة التي كانت عليها في فترات سابقة، بل كانت أضعفَ من أن تمانع أو ترفض، وتَجلَّى ذلك التوجه نحو الغرب في حركة السفارات إلى الدول الأوروبية، ولعبت تقارير السفراء العثمانيين عن الدول الأوروبية دورًا مهمًا ومؤثرًا في نقْل مظاهر المدنية الغربية للدولة العثمانية في ذلك الوقت[٢]، ولكنَّ تقارير هؤلاء السفراء اقتصرت على الجانب الشكلي من التقدم الغربي دون الجوهر، ولم تتعمق في الأسباب التي أدَّت إلى تقدُّم الغرب، وكان هذا مرجعه في الأساس إلى الفتنة بالغرب أو الهزيمة النفسية التي بدأت تتسلل إلى القائمين على أمر الدولة، فعلى سبيل المثال: أول سِفارةٍ أُرسلَت إلى فرنسا عام ١٧٢٠م؛ كان الغرضُ منها: «الاطلاعُ على وسائل العمران والمعرفة، وتقريرُ ما يَصلح منها للتطبيق في الدولة العثمانية»[٣]، إلا أن السفير العثماني القائم على هذه السفارة: «يرمي سكز محمد چلبي»؛ اقتصر في تقريره على وصف القصور ودار الأوبرا، واهتم اهتمامًا بالغًا بوصف الحدائق هناك وطرق تشجيرها[٤].

---

(١) انظر: أحمد عبد الرحيم مصطفي: مرجع سابق، ص١٥٤-١٥٦.

(٢) وفاء أحمد البستاوي: فكرة الإصلاح في تذاكر أحمد جودت باشا، ص ٣٢.

(3) Enver Ziya Karal: Tanzimattan Evvel Garplılaşma Harektleri, Tanzimat'da, Milli Eğitim Basımevi,ist.,1999,Icilt,s,19.

(٤) وفاء أحمد البستاوي: مرجع سابق، ص ٣٤.

وانعكست روح الاستسلام والانبهار تلك أمام كل ما هو غربي؛ على الدولة والمجتمع العثماني، حتى إن تلك الفترة عُرفت في التاريخ العثماني بـ«عصر اللاله»، إذ انتشرت في تلك الفترة زراعة زهرةُ اللاله أو الخُزامي، وساد الانغماسُ في الترف ومحاكاةِ الغرب في الطُّرُزِ المعمارية والموسيقى(١).

وليت الأمور اقتصرت على ذلك فحسب، بل إن ذات السفير «يرمي سكز محمد چلبي»؛ قام بتأسيس أُولى الجمعيات الماسونية في الدولة العثمانية، وذلك عندما قام في عام ١٧٢١م بتأسيس أول محفل ماسوني في إستانبول يتبع محفل الشرق الماسوني، وكان هذا المحفل يقع في حي غلطة بجوار الجامع العربي في إستانبول، ثم انتشرت المحافل الماسونية بعد ذلك خارج إستانبول(٢).

وهذا عينُ ما يحدث الآن في عالمنا الإسلامي؛ فالانبهار بكل ما يأتي من الغرب؛ يقود المسلمَ خلف كل ما يأتي من الغرب حتى لو كان يخالف عقيدته وما يؤمن به، دون أن يتمتع المسلم بروح ناقدة تجعله على دراية بما يجب عليه أن يَحتذيَ به ويستفيدَ منه في دنياه، وما يجب عليه أن يرفضه ولا يُلقي له بالاً.

ومنذ ذلك التاريخ؛ بدأت الكُرة تتدحرج، وأخذت الدولة العثمانية تخطو بسرعة لتطوي صفحتَي المقاومة والانبهار ، وتفتح صفحة جديدة من صفحات الغزو الثقافي وهي صفحة الهزيمة النفسية، لينطبق عليها حديثُ رسول الله ﷺ: «**لَتَتَّبِعُنَّ سُنَنَ مَن كان قَبْلَكم حَذْوَ القُذَّة بالقُذَّة، حتى لو دخلوا جُحْرَ ضَبٍّ لَدخلتموه**»، قلنا: يا رسولَ الله؛ اليهود والنصارى؟ قال: «**فمَن؟**»(٣).

---

(١) عبد الرازق بركات: مرجع سابق، ص ٣١.

(2) İlhami Soysal: dünyada ve Türkiyede Masonluk ve Masonlar ist, 1980, S 193.

(٣) رواه البخاري من حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه.

ثالثًا: الهزيمة النفسية

دخلت الدولة العثمانية تلك المرحلةَ وقد تمكنت منها فكرةُ أن التغريب الكامل هو الحل لكل مشاكلها، واستتبع الإيمانُ بهذه الفكرة أن تقوم الدولة بإعادة النظر في جميع مؤسساتها وإعادة صياغتها من جديدٍ وفق النظم الغربية، واستبدالِ ما لديها من شرائعَ وقوانينَ لتتوافق مع القوانين الغربية.

وقد انعكست تلك القناعة على ولاة الأمور، وأخذ كل منهم يخطو خُطوة في سبيل تحقيق ذلك الهدف، فقام السلطان سليم الثالث (١٢٠٣-١٢٢٢هـ/ ١٧٨٩م – ١٨٠٧م) بإنشاء فرقة جديدة سماها «النظام الجديد»، تتلقى تدريبَها على النمط الأوروبي الحديث، وفرَض عليها ارتداءَ الملابس الأوروبية، وكان يشرف على تدريبها خبراءُ جرَى استقدامُهم من فرنسا ودولٍ أوروبية أخرى، وقد لعب هؤلاء الخبراءُ دَورًا في إعادة تشكيل قناعات الجيل الجديد من ضباط الجيش؛ بحيث تغيرت نظرتُهم للغرب، واعتبروا الخبراءَ الغربيين مرشدين وراعين لهم في اقتباس الأساليب الحديثة[١].

ورأَى السلطان سليم الثالث أن التحديث والتجديد لا يقتصر على الجيش فحسب؛ بل يشمل كافةَ مناحي الحياة، وهذا يتطلب توطيدَ العلاقة بالفكر الغربي؛ عن طريق تجديد وتطوير النظم التربوية والتعليمية بما يخدم فكرَ الإصلاح على النمط الأوروبي، وإرسالَ البعثات الطلابية إلى إنجلترا وفرنسا للدراسة ونقْل الخبرة والاهتمام بالترجمة عن اللغات الأوروبية وبخاصة الفرنسية[٢].

---

(١) انظر أحمد عبد الرحيم مصطفى: مرجع سابق، ص١٧٩.

(٢) وفاء أحمد البستاوي: مرجع سابق، ص ٣٨.

وبعد خلْعِ السلطان سليم الثالث؛ جاء السلطانُ محمود الثاني(١٢٢٣-١٢٥٥هـ/ ١٨٠٩-١٨٣٩م)، وكان أشدَّ حماسةَ للنقل عن الغرب، وأكثرَ حرصًا على الخروج عن التنظيم الإسلامي للدولة والمجتمع وصَبغِهما بالصِّبغة العلمانية، ذلك أن الهزيمة النفسية قد بدأ مفعولُها يعمل في قلوب ولاة الأمر في الدولة العثمانية، لذا لم يعد الحديث عن الإصلاح وفق النمط الأوروبي؛ بل عن تبنِّي أسس المنظومة العلمانية التي قامت عليها دولُ أوروبا، ومحاولةِ إعادة بناء الدولة والمجتمع العثماني عليها.

وقد تبدَّى هذا واضحًا في إرسال مزيدٍ من البعثات إلى أوروبا، وإنشاءِ مدارسَ فنيةٍ عُليا وفق نظام علماني يشرف عليه معلمون من الدول الأوروبية وبخاصة فرنسا؛ لتخريج الكوادر اللازمة للدولة، وأنشأ مكتبًا للترجمة في الباب العالي ليوفر له مزيدًا من التواصل مع دول أوروبا، وأعاد افتتاحَ سفاراته في العواصم الأوروبية التي كانت قد أُغلقت على إثر خلْع السلطان سليم الثالث، وفي ذلك المكتب وتلك السفارات؛ جرى إعدادُ عددٍ من الرجالات أصحابِ التوجه العلماني؛ أمثال مصطفى رشيد باشا، وعالي باشا، وفؤاد باشا، فكانوا أكثر قَبولاً وتحمُّسًا لفكرة الغزو الثقافي الغربي الأوروبي، وصارت هذه النخبةُ الجديدة التي تتقن اللغة الفرنسية وتؤمن بالغرب إيمانًا عميقًا؛ هي من سيقود الدولة في فترات تالية[1].

أما على الجانب المجتمعي؛ فقد أمر السلطان محمود الثاني بالتزيِّي بالزِّي الأوروبي المتمثل في ارتداء السراويل الأوروبية (البِنطالات)، واستبدال

(1) Bkz. Mümtazer Türköne: Osmanlılar'da Islahat ve Teceddüt, Osmanlı Ansiklopedisi, İz yayıncılık,ist;1996. 6cilt,S. 23, 25, 27.

العِمامة بالطربوش[١]، وجعل السلطانُ من نفسه نموذجًا لاقتباس مظهر الغرب، فطوَّر لباسَه ليظهر بمظهر العواهل الأوروبيين، وقص لحيتَه وارتدى الطربوشَ والبنطالَ، وشهِد الاحتفالاتِ العامةَ والكونسراتِ والأوبراتِ وحفلاتِ رقْصِ الباليه التي كانت تُعرض في بعض السفارات الأجنبية، كما استقدم الموسيقيين الغربيين وأنشأ فِرقته الموسيقية الخاصة[٢].

وبتلك الإجراءات؛ فإن السلطان محمود الثاني مهَّد الطريقَ لتحوُّل الدولة من دولةٍ إسلامية إلى دولة علمانية، وإن لم يتم تأكيد هذا بشكل رسمي، لكنه حدث على يد السلطان عبد المجيد الأول (١٢٥٥-١٢٧٧هـ/ ١٨٣٩-١٨٦١)، عندما أصدر فرمان التنظيمات الأولَ المسمى: «خط شريف كلخانه» عام ١٨٣٩م بعد ثلاثة أشهر من توليه الحُكم، وقد حرص السلطان عبد المجيد على قراءة هذا الفرمان في حضور جميع السفراء الأجانب في إستانبول ورجال الدولة وممثلي الطوائف الدينية[٣].

وفي هذا الفرمان؛ تم التأكيدُ على أمورٍ منها: مبدأ سيادة القانون، وأن إعداد القوانين سيتم عن طريق إدارة استشارية، وعلى المساواة وفق المفاهيم الغربية بين كل الرعايا العثمانيين بصرف النظر عن معتقداتهم الدينية، وعلى هذا النحو تم إلغاءُ عدم المساواة بين المسلمين وغير المسلمين[٤].

---

(١) محمد فريد: مرجع سابق، ص ٢٣١.

(٢) انظر: أحمد عبد الرحيم مصطفى: مرجع سابق، ص١٩٦.

(3) Mümtazer Türköne: a.g.e., S. 33.

(٤) ناظم تورال: التحول الديموقراطي في تركيا، ترجمة: د. أحمد عبدالله نجم، ص٦٩.

ونَص الفرمانُ على تأسيس قوانين جديدة دون أن يشير إلى مرجعيتها، وهذا يعني أن الدولة لم تعد تثق فيما لديها من قوانين وشرائع إسلامية، وهذا في رأْينا عينُ الهزيمة النفسية، مع أن ذلك المرسوم قد أكَّد في بدايته على أن سببَ الضعف الذي حل بالدولة هو عدمُ الانقياد والامتثال للشرع الشريف[١].

وهذه الازدواجية الواضحة والتأرجح بين التأكيد على أن سبب الضعف الذي حل بالدولة هو عدم الانقياد والامتثال للشرع الشريف، وبين التأكيد على سَن قوانين جديدة للدولة دون أن يشير إلى مرجعيتها وهي القوانين الغربية، لا يعكس ترددًا لدى ولاة الأمر الذين حزموا أمرهم بالتوجه نحو الغرب؛ بقدر ما هو محاولةٌ لتوقِّي ردود الأفعال التي قد تعارض هذا التوجهَ من جموع الشعب المسلم.

ومع أن إصدار فرمان «خط شريف كلخانه» كان يهدف أساسًا إلى استعادة مكانة الدولة وهيبتها؛ إلا أن هزائم الدولة العثمانية العسكرية لم تتوقف، وزاد الأمرَ سوءًا أن الفرمان قرر المساواةَ بين الرعايا المسلمين وغير المسلمين في الحقوق الشخصية وحقوق المواطنة، وهذا كفيلٌ بتسديد ضربةٍ تُقوِّض النظامَ الأساس في دولة إسلامية لا تعتمد على مثل هذه المساواة، وضربةٍ لتركيبٍ اجتماعي كان الناس قد درجوا عليه منذ العهود الأُولى وتطوَّر على طول الزمن حتى أخذ شكلَه النهائي[٢].

ورغم هذا الفشل الواضح لفكرة الإصلاح على النسق الغربي، إلا أن ولاة الأمر المهزومين نفسيًا؛ سارعوا إلى إصدار فرمان التنظيمات الثاني المعروف

(١) للاطلاع على نص ذلك الفرمان؛ انظر: محمد فريد: مرجع سابق، ص ٢٥٤-٢٥٦.
(٢) فريدون آمجن: مرجع سابق، ص ١٠٣.

بـ«خط همايون» والذي صدر عام ١٨٥٦م[١].

وقد جاء فرمان «خط همايون» تأكيدًا لنفس مبادئ «خط شريف كلخانه»، مع اعترافٍ صريحٍ وواضحٍ بالمساواة الكاملة بين رعايا الدولة العثمانية، واعترافٍ بحقوقٍ سياسية أيضًا للرعايا غير المسلمين. وهكذا كانت المبادئ التي نص عليها فرمان التنظيمات الثاني؛ تسير على أساس التخلص من الأسس الدينية، وبالتالي الابتعاد عن تطبيق قوانين الشريعة الإسلامية في حكم الدولة وإدارة مؤسساتها[٢].

وهذا يعني أن الدولة قد تخلصت من الازدواجية التي ميزت فرمانَ التنظيمات الأول، واتخذت طريقًا وحيدًا يتمثل في مزيدٍ من الهزيمة النفسية والتنازلات للغرب، كالتأكيد على عدم تطبيق عقوبة الإعدام على المرتدين، وزيادة تمثيل غير المسلمين في مجالس الولايات والمجالس المحلية، والسماح للأجانب بتملُّك الأراضي، في محاولةٍ لإرضاء الدول الأوروبية وضمانِ عدمِ تدخلها في شؤون الدولة العثمانية [٣].

ولكنَّ هذا لم يحدث؛ إذ أن الدولة بعد إصدار هذا الفرمان؛ دخلت في مرحلةٍ اتَّسع الفتْقُ فيها على الراتق، فأخذ مسيحيو الدولة يتطلعون إلى مزيدٍ من التدخل الأوروبي؛ للحصول على مَزيد من الامتيازات بدلاً عن تطلعهم إلى السلطات، وراحت مظاهر السخط تشتد في الأماكن التي يزدحم فيها المسلمون وغيرُ المسلمين، وبدأت الولاياتُ ذاتُ الأغلبية المسيحية تطالب بالحكم

(١) للاطلاع على نص فرمان خط همايوني؛ انظر: محمد فريد: مرجع سابق، ص ٢٥٦-٢٦٠.
(٢) وفاء أحمد البستاوي: مرجع سابق، ص ٤٦.
(٣) انظر: أحمد عبد الرحيم مصطفى: مرجع سابق، ص٢١١-٢١٢.

الذاتي أو الاستقلال[١].

إضافةً إلى هذا؛لم تستطع الدولةُ أن تمنع حملاتِ «التبشير» المسيحيةَ في التغلغل داخل أراضي الدولة العثمانية وممارسة عملها بشكل قانوني، ففي الفترة التي تلت إصدارَ فرمان «خط همايون»، وطِبقًا لتقارير المبشرين الأمريكيين؛ كان عدد المدارس والمعاهد العليا التابعةِ لهم داخل الدولة في عام ١٨٨٦م: ٣٥ مدرسة، وعددُ مدارسِ البنات الداخلية: ٢٧ مدرسة، وعددُ المدارس في المستويات الأقل: ٥٠٨ مدرسة، وعددُ الطلاب الذين حصلوا على التعليم في الأماكن المتنوعة:٢٥.١٧١، منهم١٣.٣٧٠ في تركيا، و٦٠٧٥ في سوريا، و٥١٠٦ في مصر، وزادت هذه الأرقام حتى عام ١٩١٤م، وافتُتحت ٩ مستشفيات و١٠مستوصفاتٍ ودُورٍ للعلاج، وكان عدد المرضى الذين يتلقون العلاج بها: ٤٠ ألفًا[٢].

وقد أدت هذه الجهود وجهودُ ترجمة الأعمال الفكرية الغربية؛ إلى مزيدٍ من الغزو الثقافي والهزيمة النفسية، تلك الهزيمة التي أفررت كُتّابًا مثل حسين جاهيد (١٨٧٥-١٩٥٧م) الذي دعا في مقالاته إلى إهمال تعلُّم اللغة العربية وتـرْكِ علومها المختلفة، على اعتبار أن أي تقدُّم حققته الحضارة العربية الإسلامية قد أصبح في ذمة التاريخ، وأن أوروبا الآن أصبحت وارثةَ التقدم المادي، وهي الحضارة الجديدة بحق، فيجب ألا نحبس أنفُسنا داخل الحضارة العربية الإسلامية التي تُشبه سورَ الصين، بل يجب الانطلاقُ إلى رحاب

(١) انظر فريدون آمجن: مرجع سابق، ص ١٠٧-١٠٩.

(٢) ياوز جولر: العلاقات التركية الأمريكية في عهد الدولة العثمانية، ترجمة د. أحمد عبد الله نجم، ص٧٨.

الحضارة الأوروبية التي تجمع كلَّ أسباب التقدم المادي والمعنوي[١].

وجعلت كاتبًا آخر هو توفيق فِكْرت (١٨٩٧-١٩١٥م) يرفض الفكرةَ الدينية، ويعلن إلحادَه ويثور على التقاليد الموروثة، ويدعو إلى التحرر من التقاليد وإعطاء الحرية الكاملة للعقل، والتخلي عن الفكرة المطلقة للألوهية والإيمان بدينٍ طبيعي، وجعلَته يَهذي في أشعاره فيقول عن القرآن الكريم: «أيها الكِتاب العتيق القديم، غداً ستمزَّق صفحاتُك التي كانت مَدفنَ الفكر» [٢]، ومثل تلك الدعوات أدَّت إلى انهيار الدولة العثمانية ككِيانٍ سياسي في ١٩٢٢م، وإلغاءِ الخلافة عام ١٩٢٤م، وإعلانِ تركيا دولةً علمانيةً وتقنين العلمانية عام ١٩٢٨م، واستخدامِ الحَرف اللاتيني في الكتابة بدلاً عن الحرف العربي[٣]، وبهذا اكتملت معالمُ الهزيمة النفسية التي أصابت الدولةَ العثمانية، وأفرزَت جِيلاً منقطعَ الصلة بالماضي، لا يرتكن على أية أُسسٍ تحفظ له هويتَه وأصالتَه التي فقدها، وأدخلَت وريثتَها تركيا في مرحلةٍ من الفوضى الاجتماعية والفكرية الرهيبة، وخلقَت فراغًا فكريًا وثقافيًا ما زالت تركيا تحاول أن تتعافَى منه حتى اليوم.

---

(1) Niyazi Berkes: Türkiye'de Çağdaşlaşma, Doğu Batı yayınları , ist, 1978, S. 377.

(2) Sadik Albayrak: Türkiye`de Din kavgası,Şamil yayınevi,ist,1984,s24.

(3) Ahmet Yüeckök: Türkiye'de Din ve Siyaset, Gerçek yayınevi, ist 1971, s81.

الخاتمة

لم تكن حركةُ الغزو الثقافي الذي تعرضَت له الدولةُ العثمانية؛ تسير بشكلٍ عشوائي؛ بل إن الخُطواتِ التي تمَّت في سبيل تحقيق هذا كانت مدروسةً تستندً على قاعدةٍ فكريةٍ جرى الصراعُ عليها بدايةً من أوائل القرن الثامن عشر لتحقيق التغريب الكامل للدولة، وبذلك يتم القضاءُ على الخطر الإسلامي الذي مثَّلته تلك الدولةُ على أوروبا.

وقد نجح الغزو الثقافي في تحقيق ذلك الهدف لعدة أسباب؛ أهمها: الهزيمة النفسية التي أصابت ولاة الأمور فيها، حيث أخطأوا في توصيف أسباب الداء الذي ألَمَّ بالدولة وتشخيصِ طرق العلاج الناجعة له، وهذا ما جعلهم يتلمسون العلاجَ عند الغرب؛ غافلين عن أن الغرب لن ينسى لهم نجاحَهم في القضاء على الامبراطورية البيزنطية وفتوحاتهم في أوروبا؛ والرعبَ الذي أصابهم خشيةَ أن تنجح الدولةُ العثمانية في بسْط سيادتها على سائر أوروبا، مما دفع الأوروبيين للبحث عن طريقٍ لإيقاف ذلك الخطر الداهم.

وهذا التوجهُ الخاطئُ للدولة العثمانية نحو الغرب؛ كلَّفها الكثيرَ وجعلها تدفع ثمنًا غاليًا من وحدتها وقوتها التي قامت على أساسِ تمسُّكها بالإسلام، ذلك أن دعاةَ التغريب مدفوعين بهزيمتهم النفسية؛لم يلتفتوا إلى أن الحضارةَ الغربيةَ حتى وإن كان لديها ما تعطيه في الجانب المادي، فإنها على الجانب المعنوي الروحي فقيرةٌ تكاد لا تملك أي إسهامٍ أو معطياتٍ يمكن أن تأخذَها الدولةُ أو تستفيدَ منها، وأن الأسباب التي كفلتً للغرب التقدمَ والرقيَّ، ليس بالضرورة أن تنجح عند تطبيقها في دولةٍ مسلمة، بل على العكس يمكن حين الأخذ بتلك الأسباب أن تفقد الأمةُ هويتَها، وأن تخلق جيلاً يعرف عن الغرب

أكثرَ مما يعرف عن ماضيه المشرق[١].

وهناك سؤال يطرح نفسَه: هل أصبح الحديثُ عن الغزو الثقافي الغربي حديثًا من الماضي يجب ألا نتحدث عنه في أيامنا تلك التي بلغ الغربُ فيها ما بلغ من التقدم والازدهار، ولم يعد العالم الإسلامي يشكل بالنسبة إليه أية خطورة؟ الإجابة مع الأسف هي: لا ، ذلك أن المشكلة بالقطع ليست في الإسلام كدينٍ أو في المسيحية كشريعةٍ سماوية، بل المشكلةُ كانت ومازالت في الرجل الغربي وعقلِه الذي عشَّش فيه الفساد، فهو قد أصيب بآفةٍ ومرضٍ عُضالٍ جعلاه لا يرى في الدنيا إلا نفسه، ولا ينظر إلى الحضارات الأخرى إلا من خلال ماضيه وحاضره، صار فرِحًا بما يملك من العلم، مستهزئًا بحضارات الماضين وحضارات الآتين التي لا تطابق مايراه صوابًا[٢].

وهذا في رأينا مَكْمَنُ الداء؛ فالغرب حتى اليوم لا يرى في الإسلام سوى نقيضٍ وخطرٍ داهم يهدد وجودَه، فالشعور الديني فى الغرب لا يجادل الإسلامَ فكريًا؛ بل إنه ينظر باستخفافٍ إلى الإسلام ويَعُدُّ العُدةَ لطرحة بعيدًا عن حركة الإسهام الروحى للشرائع السماوية[٣]، وهذا العَداءُ والغرورُ يظهر أوضحَ ما يظهر تجاه الإسلام فحسب، فالإنسان الغربي قد يقبل التعايشَ والمواءمةَ مع كل الشرائع والأفكار- السماوية منها والوضعية- ولكن يختلف الحال عندما يتجه إلى الإسلام أو يأتي الإسلام إليه؛ فيتحول إلى النقيض ويتخذ موقفَ

---

(1) Tahsin Ünal: Fikir Akımları ve Emperyalizm, Blige yayınları, Konya, 1 baskı, 1976, s60

(٢) محمود شاكر: أباطيل وأسمار، ص ٢٣٠.

(٣) هشام جعيط: أوروبا والإسلام، ص ٢٤.

العداء والبُغض الشديد للإسلام وأهله، فقد لا تقبل أوروبا تعاليمَ البوذية أو الهندوكية أوحتى اليهودية، ولكنها تقف منها موقفًا موضوعيًا يتَّسم بالعقل والاتزان، أما حين تتجه إلى الإسلام؛ فيختل التوازنُ العقلي والتفكير الجدِّي، ويعالجون الإسلامَ لا على أنه موضوعُ بحثٍ علمي، بل كمتَّهمٍ يقف أمام قضاته[١]، ونتيجةً لهذا العداء، فإن الغرب لم يترك أيةَ فرصةٍ أتيحَت له إلا وحاول إيذاءَ الإسلام وأهلِه، إنْ بطريقة خشنة عن طريق الاستعمار كما كان يحدث في الماضي، أو عن طريق الغزو الثقافي وفرْض النموذج الغربي عليه بما يسمى بالعولمة كما يحدث الآن.

إن السبيلَ الأمثل لمقاومة ذلك الغزو الثقافي في زمن العولمة وثورة الاتصالات التي يعيشها العالم الآن، وتحقيقَ عودة الإسلام إلى حياتنا من جديد، وتطبيقَه بشكل يضمن العودةَ إلى النموذج الحضاري الإسلامي الذى فقدناه؛ يبدأ بأن نضع أمام الأعين مانطلق عليه: ثمَنَ التقدم، فالحضارة الغربية حققت انتصاراتها عن طريق إخفاء ثمن التقدم الذي كان باهظًا للغاية، ومن هذا تبدأ نظرةٌ نقدية للغرب، ويتولد الإبداع عندنا، وينشأ المشروع الحضاري الخاص بنا، الصادرُ عن اليقين الإنساني من خلال الإيمان بالإسلام واستلهام القرآن والسنة[٢]، وتلك النظرة الفاحصة الناقدة ستجعل الكثيرين منا يَرون الغرب على حقيقته، ويدركون أن الأُطرَ الفكريةَ الغربيةَ والنظرياتِ والمناهجَ والثقافةَ الغربية بكل مدارسها؛ لم تَعُدْ صالحةً لبناء نهضتنا وحضارتنا وإقامة الكِيان العمراني المشترك لأمتنا[٣].

(١) عبد الودود شلبي: حتى لا نُخدع، ص ١٨٥.
(٢)عبد الوهاب المسيري: الفكرية الغربية المعاصرة وأثرها فى الشرق المسلم، ص٢٢.
(٣) جابر طه العلواني: الازمة الفكرية المعاصرة، ص٩.

وهذه الرؤية ستجعل المسلمَ يقف على أرضٍ صلبة يستمد قوَّته من ثقته بالإسلام كدينٍ خالد لكل زمان ومكان، لذا يجب عليه أن يتعامل مع الآخرين بعزة المسلم، وأن يعيش عالي الرأس يؤمن بأنه متميز مختلف عن سائر الناس، عظيم الفكر؛ لذا فعليه أن يكِدَّ ليحتفظ بهذا الفارق كصفة غالبة، وأن يعلن هذا الفارق على الناس بشجاعة بدلاً عن أن يعتذر عنه بينما هو يحاول أن يذوب فى مناطق ثقافية أخرى[١].

ولكن تلك الثقة بالنفس لا تعني أن تصاب الحضارة الإسلامية بالغرور وتنغلق على نفسها وترفض التواصل والتعاطي مع نتاج الحضارات الأخرى، بل يجب على تلك الحضارة الواثقة بربِّها؛ أن تنظر فى معطيات الحضارة الغازية، وتنقد وتغربل وتقرر قبولَ ما تقبل ورفْضَ ما ترفض، وكلما زادت ثقتُها بنفسها في ساحة المواجهة؛ زادت قدرتُها على الاستيعاب الحضاري دون عُقَدِ نقْصٍ[٢].

فموقف الحضارة الإسلامية من حضارة الغرب يجب أن يكون موقفَ ناقدٍ واعٍ لا يتعامل مع ظواهر الأمور؛ بل يتعمق في دراسة أصولها وجذورها بما يَكفُل لها المنَعة عند حدوث مواجهة حضارية، وتلك المواجهة الحضارية لا تعني رفْضَ الحضارة الغربية؛ فلا يمكن أن نرفضها حتى لو رغِبنا في ذلك، إنما الوحيد الضروري والممكن هو أن نحطم الأسطورة التي تحيط بها، فإن تحطيم هذه الأسطورة سيؤدي إلى مَزيدٍ من جعْل هذا العالم أكثر إنسانية[٣]، فالصراع

(١) محمد أسد: الإسلام على مفترق الطرق، ترجمة د. عمرالفاروخ، ص ٨٣.
(٢) محمد جابر الأنصاري: ندوة: اتجاهات الفكر الإسلامي المعاصر، ص١٠٢.
(٣) علي عزت بيجوفيتش: الإسلام بين الشرق والغرب، ترجمة محمد يوسف عدَس، ص١٣٣.

بين حضارة الإسلام وحضارة الغرب قضية هوية في المقام الأول، وكل الخلافات الأخرى بين الحضارتين تأتي تبعًا لهذه القضية، فمعركة الهوية هي أخطر المعارك؛ لأن الأمة يمكن أن تنهزم في العديد من المعارك، ولكن إذا احتفظت بهويتها فإنها تحتفظ بإرادتها المستقلة، أما إذا فقدت هويتها فإنها تستسلم، وهنا تكون النهاية[١].

والنجاح في تلك المعركة هو ما يضمن للأمة إقامةَ سياجٍ يحمي تراثها الفكري، ويكفل لها الصمود أمام المد الثقافى الغربي؛ لذا فحركة التغيير الاجتماعي خاصة في مجتمعاتنا؛ لا ينبغي لها أن توجه مساراتها وهمومها ابتداءً نحو هدف التقدم بالمعنى النفعي فقط، أو ما يسمى: بالتنمية الاقتصادية؛ بل لابد أن تنطلق هذه الحركة ابتداءً نحو تحقيق التقدم بالمعنى القيَمي والإنساني؛ ضِمن عمليات بِناء الفرد والمجتمع؛ لأن ذلك هو جوهر الحضارة والهدف المركزي الذي ينبغي أن تكون له الأولوية فى أهداف سُلّم التغيير[٢]، وعندما تتحقق تلك العودة إلى الذات؛ فإن الخطاب الحضاري للأمة الإسلامية يصل إلى أسماع الدنيا يُعْلِمُها أن المستقبل فقط مع الإسلام، وأن أية بدائلَ أخرى لا يمكنها تقديمُ مشروعٍ حضاريٍّ يَكفل للعالم التقدمَ والازدهار، وذلك لأن أية بدائلَ أخرى لا تملكُ مشروعًا متكاملاً للنهضة كالإسلام، فالإسلام رغم أنه يدعو دومًا إلى ربط الإنسان بأسباب السماء؛ إلا أن هذا لا يعني أنه يُهمل حاجات البشر المادية التي يجب توافرُها لتسير حياتهم على الأرض وتسهيل

(١) محمد عمارة: الجديد في المخطط الغربي تجاه المسلمين، محاضرة فى المعهد العالمي للفكر الإسلامي، القاهرة ١٩٩٣م، ص٧.

(٢) علي قريشي: مفهوم الحضارة بين مالك بن نبي وسيد قطب، مجلة الهلال،عدد سبتمبر١٩٨٧م، ص١٢٥.

عمارتها؛ على عكس الشرائع والنظم الأخرى التي إما أن تُغرق في المادية أو أن تُغرق في الروحية، أما الإسلام فإنه يشمل الحياة بأَسْرها، فيهتم بالدنيا والآخرة، وبالنفس والجسد، وبالفرد والمجتمع، وهو بذلك يوافق بين الوجهتين- الروحية والمادية- في الحياة الإنسانية، وهاتان الوِجهتان لا تدَعان تناقضًا أساسيًا بين حياة الإنسان الجسدية وحياته الأدبية فحسب؛ بل تتلازمان بشكلٍ يؤكد عليه الإسلام ويراه الأساسَ الطبيعي للحياة[1].

والحمد لله الذي تتم بنعمته الصالحات، وآخر دعوانا أنِ الحمد لله رب العالمين.

(١) انظر: محمد أسد: مرجع سابق، ص ٢٢، ١١٠.

مراجع الدراسة

أولاً: المراجع العربية

- أحمد حكمت أر أوغلو: اليهود في الدولة العثمانية حتى نهاية القرن التاسع عشر، دار الهداية للنشر والتوزيع، القاهرة،٢٠١٠م.
- أحمد عبد الرحيم مصطفى: في أصول التاريخ العثماني، دار الشروق، القاهرة، ط ٢، ١٩٩٣م
- أحمد عبد الله نجم: التعليم في الدولة العثمانية في ضوء المصادر التركية، دار الهداية للنشر والتوزيع، القاهرة، ٢٠٠٩م.
- أكمل الدين إحسان أوغلي: الحياة التعليمية والعلمية وأدبيات العلوم عند العثمانيين، في الدولة العثمانية تاريخ وحضارة، إشراف وتقديم أكمل الدين إحسان أوغلي ، ترجمة صالح سعداوي، أرسيكا، إستانبول،1999م.
- جابر طه العلواني: الأزمة الفكرية المعاصرة ، المعهد العالمي للفكر الإسلامي،القاهرة ، ١٩٨٩م.
- خليل إينالجيق: تاريخ الدولة العثمانية من النشوء إلى الانحدار، ترجمة محمد الأرناؤوط، دار المدار الإسلامي، ط١، بيروت، ٢٠٠٢م.
- عبد الرازق بركات: نصوص من الفكر الإسلامي، دار الهداية، القاهرة، ٢٠١٠م.
- عبد الودود شلبي: حتى لا نُخدع ، دار الشروق، القاهرة، ط٥ ، ١٩٩١م.

- عبد الوهاب المسيري: الفكرية الغربية المعاصرة وأثرها فى الشرق المسلم، المعهد العالمي للفكر الإسلامي، القاهرة، ١٩٩٤م.
- علي عزت بيجوفيتش: الإسلام بين الشرق والغرب، ترجمة محمد يوسف عدس، مجلة النور الكويتية ، ط١ ، ١٩٩٤م.
- علي قريشي: مفهوم الحضارة بين مالك بن نبي وسيد قطب، مجلة الهلال،عدد سبتمبر١٩٨٧م، ص١٢٥.
- فريدون آمجن: التاريخ السياسي للدولة العثمانية، في الدولة العثمانية تاريخ وحضارة، إشراف وتقديم أكمل الدين إحسان أوغلي ، ترجمة صالح سعداوي، أرسيكا، إستانبول،1999م.
- محمد أسد: الإسلام على مفترق الطرق، ترجمة د. عمرالفاروخ ، دار العلم للملايين، بيروت، د. ت.
- محمد جابر الأنصاري: ندوة إتجاهات الفكر الاسلامى المعاصر، مكتب التربية العربى، البحرين، ١٩٩٤م.
- محمد عمارة: الجديد في المخطط الغربي تجاه المسلمين، محاضرة في المعهد العالمي للفكر الإسلامي، القاهرة ، ١٩٩٣م.
- محمد فؤاد كوبرلي: قيام الدولة العثمانية، ترجمة د. أحمد السعيد سليمان، الهيئة العامة للكتاب، القاهرة، ١٩٩٣م.
- محمد فريد: تاريخ الدولة العلية العثمانية، مكتبة الآداب، القاهرة، ط ٣، ١٩٩٧م.

- محمود شاكر: أباطيل وأسمار، مطبعة المدني ، القاهرة ، ط٢ ، ١٩٧٢م.
- ناظم تورال: التحول الديموقراطي في تركيا، ترجمة: د. أحمد عبد الله نجم، مركز المحروسة للنشر والمعلومات، القاهرة،٢٠١٢م.
- هشام جعيط: أوروبا والإسلام، دار الحقيقة ، بيروت ، ١٩٨٠م.
- وفاء أحمد البستاوي: فكرة الإصلاح في تذاكر أحمد جودت باشا، القاهرة،٢٠٠٩م.
- ياوز جولر: العلاقات التركية الأمريكية في عهد الدولة العثمانية، ترجمة د. أحمد عبد الله نجم، مجلة المنار الجديد،القاهرة، العدد٣٩، صيف٢٠٠٧م.

ثانيًا: المراجع التركية

- عبد الرحمن شرف: تاريخ دولت عثمانية، قره بت مطبعة سي، إستانبول، ١٣١٥هـ.
- فرائضي زادة محمد سعيد: تاريخ گلشن معارف، إستانبول، دار الطباعة العامرة، ١٣٥٢هـ.
- Ahmet Yüeckök: Türkiye'de Din ve Siyaset, Gerçek yayınevi, ist 1971.
- Cevat İzgi: Osmanlı Medreselerinde İlim; İz Yayıncılık: İst. 1997.
- Ekmeleddin İhsanoğlu: Tanzimat öncesi ve Tanzimat dönemi , Osmanlı Bilim ve Egitim Anlayış, 150 yılında

tanzimat, TTk yayınları, Ankara, 1992.
- Enver Ziya Karal: Tanzimattan Evvel Garplılaşma Harektleri, Tanzimat'da, Milli Eğitim Basımevi,ist.,1999.
- Fahri Unan: Kuruluşundan Günümüze Fâtih Külliyesi, T. T. K. Ankara, 2003.
- İlhami Soysal: dünyada ve Türkiyede Masonluk ve Masonlar ist, 1980.
- İsmail Hakkı Uzunçarşılı:Osmanlı Tarihi,T. T. K, Ankara, 4. Baskı 1982.
- Mümtazer Türköne: Osmanlılar'da Islahat ve Teceddüt, Osmanlı Ansiklopedisi, İz yayıncılık,ist;1996.
- Niyazi Berkes: Türkiye'de Çağdaşlaşma, Doğu Batı yayınları , ist, 1978.
- Osman kafadar: Türk Eğitim düşüncesinde batılaşma,Vadı yayınları, Ankara, 1997.
- Ömer Faruk Yımaz: Osmanlı Tarihi, Osmanlı yayınevi,ist., 2 baskı,1999.
- Sadik Albayrak: Türkiye`de Din kavgası,Şamil yayınevi,ist,1984.
- Tahsin Ünal: Fikir Akımları ve Emperyalizm, Blige yayınları, Konya, 1 baskı, 1976.